الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

في قصر جلالة الملك — التجني على مصر والشرق — أهل الكهف — حشو الوزينج — مناجاة القمر ومناجاة الشمس — إلى طلبة البعثة التوجيهية — الهجوم الآثم على الشيخ سيد الرضي — إن قول الحق لم يدع لي صديقاً

في قصر جلالة الملك

كان من الحظ السعيد أن ألتفت إلى الروح اللطيف الذي يسود جوّ التشريفات يوم دخلت قصر عابدين مع المهنئين بقدوم العام الهجري الجديد

فماذا رأيت هنالك ؟

كنت أحسب أن الناس يقيدون أسماءهم في الدفاتر ثم يخرجون ، كما كنت أصنع قبل أن ألتفتَ إلى ذلك الروح اللطيف ؛ ولكني في هذه المرة عرفت ما لم أكن أعرف ، فقد رأيت المهنئين من وزراء ونواب وشيوخ وأعيان وعلماء يتلاقون فرحين مبتهجين ، ثم يتبادلون الأحاديث الطوال ، وكأنهم تلاقوا على ميعاد في مكان يرحّب بتلاقي القلوب أطيب الترحيب

كان الرجال يستقبل بعضهم بعضاً في بشاشة وأريحية ، وكان كل زائر يرى نفسه في داره ، وقد تجرّد مما يجري خارج القصر من مختلف الشؤون ؛ فهو في حَرَم مقدّس لا تهتف فيه النفوس بغير معاني الرفق والصدق والإخلاص

في قصر جلالة الملك ترى الوجوه ملامح لا تراها إلا هنالك ؛ فقد ترى رجالاً يتلاقون مبتسمين منشرحين ، وكنت تعرف من قبل أنهم لم يكونوا إلا متباعدين متنافرين ، فتدرك أن جلال المكان يوحي بالتآخي والصفاء

إن باب ذلك القصر يُفتَح للجميع في المواسم والأعياد ، فما الذي يمنع من اغتنام هذه الفرصة السخيّة لتتخذ منه ملتقى لأرواحنا وقلوبنا في كل موسم وفي كل عيد ؟

لا بدّ من لحظات ننسى فيها شواجر الخصومات اليومية ، ونلتقي فيها منزهين عن أسباب التعادي والشقاق ، فكيف يفوتنا أن نجعل رحبات ذلك القصر ميادين لسباق المواطف في تلك اللحظات ؟

أقول هذا وقد شفى الله صدري من خصومات محاها تلاقي الوجوه والقلوب في قصر جلالة الملك ، فرجعت وفي صدري أنوار لم أشهد مثلها من قبل ، والمكان الطيب كالبلد الطيب لا يثمر غير الخيرات والبركات

أعزّ الله جلالة الملك ، وجعل قصره موئل العواطف والأرواح والقلوب ، وأدام على أمته نعمة الأنس بنفائس المعاني وكرائم الأغراض

التجني على مصر والشرق

أنا لا أقول بوجوب التغاضي عما في مصر والشرق من عيوب ، فالدعوة الإصلاحية قد توجب أن نكشف عن مواطن الضعف في مصر والشرق ، وإنما أكره أن تتجنى على بلادنا بلا موجب معقول ، فذلك يوحي إلى القراء أننا خلقنا متخلفين عن جيش للعبقرية والنبوغ

أكتب هذا وقد قرأت كلمة الأستاذ « محمود » عن روزفلت وهو العبقري « الكسيح » ففي رأي هذا الكاتب أن الشلل لو أصاب طفلاً مصرياً أو شرقياً بمثل ما أصاب به روزفلت لكان مصيره أن يكون « تافهاً ساقط النفس خائر العزم مريض القلب » وما لمثل هذا التجني حملنا الأقلام ، أيها الربي المفضال

في مصر والشرق مئات من أصحاب الساعات وصلوا إلى منازل لا تقل في قيمتها الجوهرية عن منزلة روزفلت ، إلا أن تكون « رياسة الحكومة » هي المثل الأعلى بين منازل التشريف !

وما خطر الكساح في أرض مثل أمريكا ، وقد عرف أهلها أن مرجع الحكم إلى العقل ؟

إن كان عندك بقية من الإنصاف ، أيها الأستاذ ، فوجهها مشكوراً إلى المجاهدين في مصر والشرق ، ولا أقصد المجاهدين من أصحاب الساعات ، فأولئك رجال أقاموا ألوف البراهين على ما يملكون من قوة العزائم والنفوس ، وإنما أقصد المجاهدين من أهل السلامة في الأجسام والحواس ، فأولئك أقوام يعانون كساحاً أفظع وأثقل من الكساح الجثماني ؛ فالكسيح جسمياً يشعر بأنه مشدود إلى الأرض من وجهة حسيّة ، أما الكساح الذي

يرزأ به الرجل السليم من أهل النبوغ والعبقرية فيُرمى عليه من المجتمع المتخلِّف ، المجتمع الذى ينظر إلى النوابغ والعبقريين بارتياب واحتراس ، ثم يشدهم بعنف ليقيموا حيث أقام فى حضيض الغفلة والجمود

فى أوربا وأمريكا يتلهف الناس إلى المبتكر الطريف فى الآداب والفنون ، فيمضى الأديب إلى غايته وهو مطمئن إلى السلامة من تجنى المجتمع عليه ، فكيف ترى الناس يصنعون فى « أفريقا وآسيا » أو فى « مصر والشرق » وقد أُقفِل باب الاجتهاد فى الأدب ، كما أُقفل باب الاجتهاد فى الدين

كل ما ظفرنا به من الحرية فى الأدب هو الجدال حول القديم والجديد . وقد ظهر بعد أن انجلت المعركة أن الخلاف لم يَدُر إلا حول الأسلوب ، ففلان من أنصار الجديد لأنه لم يستأسر لمثل أسلوب الجاحظ أو ابن العميد ، وفلان من أنصار القديم لأنه لم يتحرر من أساليب القدماء

أما التجديد فى الفكر ، فهو محرم علينا تحريماً تاماً . وليس من حقنا أن نصارع الأمواج الفكرية إلا إذا جازفنا بحقوقنا المشروعة فى التمتع بثقة المجتمع ، وهو لا يثق بنا إلا إن جارينا فيما درج عليه من إيثار القرار والركود

وليس هذا شهادة على أننا خضعنا لأهواء المجتمع فيما نعالج من فنون الفكر والعقل ، فقد ثُرنا عليه فى كثير من الظروف لنوجهه كما نريد ، ولكن تلك الثورة لم تمر بلا عقاب ، فقد رأينا أن المناصب الفكرية أصبحت وقفاً على الموسومين بمسايرة المجتمع فى ضلاله وهداه ، ولم يصل إليها من أحرار العقل إلا أفراد آزرتهم قوى سياسية لا فكرية . ولو كان العقل وحده هو الذى يقدِّم ويؤخر لرأينا فى مصر والشرق موازين غير تلك الموازين ، ولكان من المؤكد أن تشهد مصر ويشهد الشرق موسماً جديداً من مواسم المذاهب والآراء

إن رئيس الحكومة يستهدى جلالة الملك ألقاب التشريف لمن يتبرع بمبلغ من ماله الموروث لإحدى الجهات الخيرية ، وذلك تشجيع واجب ، وهو يحض الأغنياء على بذل أموالهم فى أبواب الخير ، ويروضهم على الاقتناع بأن الدولة ترعى الضمائر اليواقظ ، فتجزيها خير الجزاء

ولكن الدولة التى تحفظ جميل المحسنين بأموالهم تنسى جميل المحسنين بعقولهم ، وإلا فهل تذكر الدولة جماعات المكافحين فى سبيل الأدب والبيان وهم يؤدون خدمات تعجز عنها المدارس والمعاهد والكليات ؟

المال يُعَدّ فيكون له حساب ، أما الدم الذى يُسفح على سنان القلم فى تجاليد الليالى فليس له حساب . ولو أن حملة الأقلام الجياد كانوا أنفقوا أعمارهم الذواهب فى الاتجار بالتراب لوصلوا إلى إدانة الدولة بما يستوجب أن تستهدى لهم من جلالة الملك ألقاب التشريف ، بدون انتظار أو اقتضاء ... فمتى تسمع الدولة هذا الصوت وهو تذكير بواجبها فى إعزاز العقل ؟ لقد حَقَّ قلمى وهو يذكِّر الدولة بحقوق الأدب الرفيع ، الأدب الذى تَدين له الدولة دَيناً أرزن من الجبال ، وهى تعرف وكأنها تجهل ، وتجاهلُ العارف قد يَثقل فى بعض الأحايين !

ذلك المصير المحزن هو مصير أرباب الفكر فى مصر والشرق ، فمن توهم أنهم فى بلادهم سعداء فهو مخلوق نقلته الغفلة من أرض الواقع إلى سماء الخيال ... وما أسعد الغافلين !

هل سمعتم بالأدب القديم عند السُّريان ؟

قيل : إن السريان كانوا أقدر الأمم القديمة على نظم أغانى الحزن والبكاء ، فهل كان ذلك من سبب غير ابتلائهم الموصول بالكوارث والخطوب ؟

ونحن فى مصر أمعنّا فى الدعوة إلى نظم أناشيد الجهاد ، مع أننا كل لحظة فى جهاد ، فمتى ندعو إلى نظم « نشيد العدل » ومن بلوانا بالظلم صرخ الدهر صرخة الإشفاق ؟

كم مرة فكر فينا مَن نخاطر فى سبيل إسعادهم بأعز ما نملك وهو العافية ؟

إن الزميل الذى يعرف فى سريرة قلبه أنه مَدينٌ لك ولو بلمحة من لمحات القلب والعقل ، والذى يؤمن بأن الحياة الأدبية مدينةٌ بعض الدَّين لصرير قلمك ، والذى يوقن بأنك نقلت صوت مصر إلى أسماع الشرق ، هذا الزميل يتلقف أخبارك من أفواه أعدائك ليجوز له التطاول عليك فى غيبتك ، عساه يشفى صدره الموبوء بجراثيم الضغائن والحقود

وفى مثل هذا الهواء الفاسد يعيش الأديب فى مصر والشرق ثم ينسى الناسون أنه لم يكن من المكافحين ، وأن الشلل لو أصابه بمثل ما أصاب روزفلت لأصبح من المتسولين !

حدثتنا إحدى المجلات أن جرائد أمريكا عابت على روزفلت أن يُرق كاتبه بلا استحقاق ، وأنه أجاب : كيف لا يستحق الترقية وهو الذى يكتب خُطبي ؟

فأى رئيس فى مصر أو فى الشرق يطمئن إلى عقل أمته فيصرّح بمثل هذا التصريح ؟

وأين من يعترف للكاتب بأنه عنوان مصر من الوجهة العقلية أو السياسية ؟

وهل يستطيع « خلف الأحمر » أن يميط اللثام عن وجهه ليقول : إنه المنشئ الأصيل لهذه الخطبة أو تلك ، والمؤلف الأصيل لهذا الكتاب أو ذاك ؟

وهل صدّق الناس قول « خلف الأحمر » قديماً حتى يصدقوا قوله حديثاً ؟

الفرق بين « الخلفين » أن الأول استفاد من تزوير القصائد والأراجيز ، أما الثانى فلم يظفر بغير الخيبة والحرمان

أما بعد ، فأين أنا مما أريد ، وقد انتقلت من الدفاع عن مصر والشرق إلى الهجوم على مصر والشرق ؟

أنا أريد القول بأن الحيوية لم تنعدم أبداً من مصر والشرق ، والكساح الذى فرضته الظروف على الأفكار والعقول لم يمنع المصريين والشرقيين من الجرى فى ميادين الفكر والعقل ، ولو اعتدل الميزان لعرف قوم أن القليل منا كثير وفوق الكثير ، لأنه يُبذَل من دماء القلوب ، ولأنه يقدَّم بلا انتظار الثواب ، وقد يقدَّم مع انتظار العقاب ، فالفضل ذنب من لا ذنب له فى « بعض » البلاد !

السائر الذى يقطع ألف ميل فى طريق مسلوك ليس أعظم من السائر الذى يقطع مئة خطوة فى طريق شائك ، ولكن أين من يعرف ؟

والكاتب الذى يُعَدّ قراؤه بالملايين ليس أعظم من الكاتب الذى يُعَدّ قراؤه بالألوف ، وقد ظهر الأول فى الغرب وظهر الثانى فى الشرق

ارفعوا عن كواهلنا الأثقال ، وانزعوا من أقدامنا الأغلال ، ثم انظروا كيف نستبق إلى أجواز الفكر والخيال

فإن عجزتم عن تحرير كواهلنا وأقدامنا فحرروا قلوبكم من آصار الحسد والحقد لنشعر بأننا سنُجزَى على صدق الجهاد ، ولو بالبَسمات والدعوات الصالحات

إلى من يتوجه قلب الأديب فى أمثال هذه البلاد ، وهو من كيد الزملاء فى عناء ؟

إلى من يتوجه ؟

يتوجه إلى الله الذى جعل سواد المداد أشبه الأشياء بسواد العيون فهو يحيي ويميت كيف يشاء

يتوجه إلى الله ، وهو الأنس الأنيس لغرباء الأرواح والقلوب

يتوجه إلى الله خالق الشرق والغرب وفاطر الأرض والسموات ، الله الذى أقسم بالقلم فى كتابه المجيد ، فكان بشهادته السامية أكرم ذخائر الوجود

يتوجه إلى الله الذى جعل بأس القلم أفتك من بأس النار والحديد ، ومن القلم يخاف من لا يخاف ، ومن صريره استعاذ من لا يَهُولهم زئير الأسود

يتوجه إلى الله الذى يجعل من عزلة الكاتب دنيا صاخبة هى العِوض الأنفس من كل مايفوته من الأنس بالمجتمع الصخاب.

وهل يعرف الكاتب ما هى العزلة ودنيا الناس جميعاً ليست إلا مُمّ الخياط بالقياس إلى دنياه الفيحاء ؟

يتوجه إلى الله الذى يخلق الضر للنفع ، والذى يبتلى الأديب بما يشاء ، ليصوغه كما يشاء ، وليكون حجته البالغة على أن العاقبة للصابرين

متى أومن بك يا ربى ؟ ومتى أعرف حكمتك فى بعض ما سوّيت من المخلوقات ؟

إرفع الحجاب لحظة واحدة لأومن بأنّ ليس فى الإمكان أبدع مما كان

حول أهل الكهف

أحسنَ فضيلة الأستاذ الشيخ عبد المتعال الصعيدى فى استدراكه على ماكتبته « الرواية الإسلامية » فى تحديد عدد أهل الكهف ، فهذه التسمية قد توهم أن ذلك هو الرأى الإسلامى بدون موجب لذلك . والحق أنى لم أرد غير إثبات رأى كان قال به فريق من المسلمين قبل نزول سورة الكهف ، وفى هذا الرأى ما يكفى لمناقشة المؤلف فى خلق بيئة الرواية المسرحية ، لأن هذا الرأى كان يجعل جمهوره أعظم وأضخم فيتيسر له فرصة التعمق لدرس طوائف من المعضلات الاجتماعية

أما كلمة الأديب حسين محمود البشبيشى فهى تشهد بأنه قرأ

الرواية وقرأ النقد بفهم وعقل ، ولكني أرجوه أن يلقاني بعد عامين ، فقد يعرف من الإيمان والارتياب ما لم يعرف ، وقد يدرك أني رميت إلى غرض فات عليه ، لأني أرمز إلى معانيَ كثيرة في أغلب ما أعرض له من الشؤون

وهنا يجب النص على أن مقالي في نقد رواية أهل الكهف وقع من الأستاذ توفيق الحكيم موقع القبول ، ولم يعترض إلا على عبارة واحدة ، وهي العبارة التي تقول بأنه ليس من أرباب الفكر العميق ، وهو اعتراض يؤيده أسف الشاعر صاحب « الجندول » فهو يرى أن الحكيم مفكر متعمق وإن أظهرته السخرية بغير ما هو عليه . وأنا أيضاً أرى الأستاذ الحكيم من ذخائرنا الأدبية ، وقد أعلنت إعجابي بكتابه « عصفور من الشرق » في كثير من المناسبات ، وفي بيئات لا تخطر له في بال ، فقد وجهتُ إليه أنظار أهل الأدب في العراق ، وليس ذلك بالقليل في تكريم هذا الصديق

الأستاذ الحكيم رضي عن مقالي في نقد مسرحية أهل الكهف ، فما شأنك أنت ، يا سيد حسين ؟

التفت إلى دروسك ، أيها التلميذ النجيب ، قبل أن أشكوك إلى أبيك !

حشو الوزينج

سألنا الأديب فخر الدين عزي عن كتاب الثعالبي في « حشو الوزينج » أين يوجد ؟

وأجيب بأن الثعالبي قال إنه كتاب « صغير الحجم لطيف الحجم » ومعنى ذلك أنه رسالة صغيرة سجّل بها ما صعُب عليه تسجيله في كتاب « ثمار القلوب » لئلا يخرج على شرط التأليف ولم يتفق لي أن أظفر بهذه الرسالة ، فأرجو هذا الأديب أن يؤلف رسالة في معناها ، فقد وضَح المنهاج ، ولم يبق إلا تقييد الشواهد وهي مبثوثة في رسائل الكتّاب وقصائد الشعراء

مناجاة القمر ومناجاة الشمس

خطرتْ في بال الأستاذ محمود البشبيشي وهو ينظم مقالهُ في مناجاة القمر ، فهل يعلم أنه خطر في بالي وأنا أنظم مقالي في مناجاة الشمس ؟

سأوجه إليه هذا المقال بعد أن تنشر « الرسالة » كلمتي عن البلبل والروض ، تعقيباً على كلمة وجّهها إليّ منذ أسابيع ، وهي كلمة لم يسرقها من « الجنية الحسناء » لأنها صدرت في اليوم الذي تلقيت خطابها فيه ، فكان ادعاء السرقة من المستحيلات !

آه ، ثم آه ! !

لقد ذكرتني نجوى القمر حين صدرتْ عن البشبيشي وهو في المنصورة بنجوى القمر حين صدرتْ عن صاحب « مدامع العشاق » وهو في سنتريس ؛ فقد جاء في مقدمة ذلك الكتاب ما نصُّه بالحرف :

« وإنك لتعلم ، أيها القمر ، كيف كنت أصدف عنك ، وأنا أطالع ذلك الوجه الذي نَعِمتَ مي بنشره المفلّج ، وأنفه الأقنى ، وطرفه الأحور ، وجبينه الوضّاح . وإنك لتعلم ، أيها القمر ، كيف هجرتك حين غاب ، وتعلم أني لا أنظر إليك إلا حين السَّرار لأرى كيف يفعل الشحوب بك ، وكيف تنال منك الليالي ! وإنها لشماتة طفيفة أحزن من بَعدها على خلود متعتك بصباح الوجوه ، وعلى عودتك لشبابك ، في حين أني أودّع كل يوم جزءاً من شبابي ، وواحسرتاه على ما أودّع من أجزاء الشباب ! ! »

ولكن لا بأس ، فقد نويت أن أعيش إلى أن أرى الشمس والقمر من بعض ما أملك ، وما دام هذا القلم طوع يميني فلن يَبيت قلبٌ إلا وهو مني على هوًى أو بغض ، فما كنتُ في زماني إلا صوت القلب والوجدان

نويت أن أعيش ، نويت أن أعيش ، وليس على الله بعزيز أن ينصر أرباب القلوب

الى طلبة السنة التوجيهية

تلقيت خطاباً من الأقصر « بفتح الهمزة وسكون القاف وضم الصاد ، وهي جمع قصر ، وبذلك سمّى العرب تلك المدينة لكثرة ما رأوا فيها من أقْصُر الفراعين » . أقول تلقيت خطاباً من الأقصر بإمضاء « غريب جاد » يثني فيه على الدراسات التي نشرتها « الرسالة » في تشريح الكتب الخاصة بمسابقة الأدب العربي . ثم يقترح أن أكتب مقالاً مفصّلاً عن كتاب « المكافأة » ، ومقالاً آخر عن كتاب « الأدب التوجيهي »

وأجيب بأني فصّلت القول عن كتاب المكافأة ومؤلفه أحمد بن يوسف في بحث يقع في تسع عشرة صفحة من كتاب